

المقالة الحادية عشرة فى قوله سبحانه: ﴿و هو العلى العظيم﴾

و فيه لطائف :



اللطيفة الأولى

فى كيفية نظمه بما سبق

و هو أنه سبحانه بعد ما أثبت و أظهر المخلوقات من العرش و الكرسي علواً فى المرتبة و عظمة فى الخلقة، اظهار الكمال القدرة و الحكمة، تردى برداء الكبرياء فى العز و العلاء، و اتزر بازار العظمة فى الرفعة و السناء، و هو أولى و أحق بالمدحة و الثناء، فقال تعالى: ﴿و هو العلى العظيم﴾ أى له العلو فى الشأن و العظمة و السلطان، فمن علا فى الآخرة فباعلائه قد علا، و من عظم فى الدنيا فتعظيمه قد عظم و استولى، فسبحان ربنا العظيم، و سبحان ربنا الأعلى .

اللطيفة الثانية

[علو الحق و عظمته صفتان اضافيتان]

اعلم أن علو الحق و عظمته صفتان اضافيتان ثابتتان له تعالى بالقياس الى اعتقاد العبد و تصوره و اثباته الوجود لغيره تعالى، و إلا فليس لما سواه وجود فى جنب وجوده تعالى حتى يتصف بالعلو بالقياس الى غيره . نعم، الانسان يتصور بقوته الوهمية لنفسه وجوداً مستقلاً و بواسطة وجوده الموهوم يتوهم و يعتقد للعالم و أفراده وجود مستقل يقيس اليها وجود الحق، فيصفه بالعلو و العظمة، ثم بقدر ما يظهر له قصور وجوده و ضعفه و قصور الوجودات الامكانية و ضعفها يزيد فى نظره علو الحق و عظمته، و لهذا المعنى قيل: «إن ظهور الانسان سبب خفاء الحق فى هذا العالم»، فبقدر انكساره و افتقاره و دثوره و فنائه يظهر له وجود الحق و بقاءه و علوه و كبريائه .

و قيل أيضاً: إن هذا العالم عالم الخيال يتراءى فيها الأشياء على وجه الانعكاس و الانتكاس، فيرى المتبوع تابعاً و التابع متبوعاً، و المستور ظاهراً و الظاهر مستوراً، بل الموجودات معدوماً و المعدوم موجوداً، فالحق موجود و الخلق مفقود، و فى الخيال يكون بعكس هذا، و كذا الحق ظاهر جلى و الخلق مستور خفى، و فى الحس بالعكس .

فاذا أخذ الانسان فى النزول و النقصان و الهبوط فى منازل الامكان، و عاد قليلا الى ماله بحسب ذاته من الخلل و الفقدان، استأنف للحق فى شهوده علواً و عظمة، جلالاً و كبرياءً، ففى كل فناء يظهر عليه للحق بقاء، و فى كل تواضع ينكشف عليه للرب تعالى كبرياء، ففى كل فناء يظهر عليه للحق بقاء، و فى كل تواضع ينكشف عليه للرب تعالى كبرياء، أو لاترى أنك تقول فى انحنائك بالركوع: «سبحان ربى العظيم» و فى هويك بالسجود: «سبحان ربى الأعلى» و هكذا قليلا قليلا الى أن يضمحل وجوده بالكلية و يبقى الوجود الحقانى للواحد القهار .

و من هاهنا يعلم أن قصارى مجهود العابدين و العارفين فى عبادتهم و علومهم ليس إلا تصحيح نسبة الامكان و حفظ مرتبة الفاقة و الافتقار و العجز و الانكسار، لئلا يبقى فى شهودهم وجود للأغيار، و لا يكون عندهم فى الدار غيره ديار، فقوله تعالى: ﴿و هو العلى العظيم﴾ بالنظر الى قوم لهم بقايا الوجود الوهمى و قوله تعالى: ﴿و هو الواحد القهار﴾ (الرعد(١٣): ١٦) بالنظر الى قوم آخرين قبل ظهور الساعة، و قوله: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾ (القصص(٢٨): ٨٨) بحسب نفس الأمر أزلا و أبداً بالقياس الى الخلايق جميعاً .

اللطيفة الثالثة

[فى تقسيم العلو بالمكانى و المعنوى]

اعلم أن العلو علوان: علو مكانى و علو معنوى و جودى .
و الأول ذاتى للمكان و عرضى للجسم، و لذا قال سبحانه فى حق ادريس عليه السلام: ﴿و رفعناه مكاناً علياً﴾ (مريم(١٩): ٥٧)، فوصف مكانه بالعلو، و أعلى الأمكنة مكان «المحدد للجهاة» و المحدد أعلى الأجسام مكاناً، فكل ما هو أقرب منه كان أعلى فى المكان ممّا هو أبعد، و يقابله مكان الأرض و هو أسفل السافلين، و الواقع فيه طبعاً كالأرض يكون تحت الأجسام، فكل ما هو أقرب منها كان أسفل .

و أمّا الثانى: فهو ذاتى للحق و هو حقيقة الوجود، و عرضى للماهيات الموجودة، فاطلاق قولنا «الموجود» على الماهيات كما يطلق قولنا «العالى» على الأجسام، و اطلاقه على الواجب عند العارفين كاطلاق «العالى» على مكان المحدد، اطلاقه على المعلول الأول عندهم أو على الواجب عند جمهور المتكلمين كاطلاق «العالى» على جرم المحدد،

و اطلاقه على ما سوى المعلول الأول - وهو الحقيقة المحمدية كما مر - كاطلاق «العالى» على غير المحدد .

و خرج من اطلاق الوجود بالفعل ماهية الهيولى ، إذ وجودها عبارة عن الهاوية المظلمة ، أى نفس السفلى والقوة والهبوط ، كما خرج من اطلاق العالى جسمية الأرض و مكانه الذى هو أسفل السافلين .

و قد وصف الله هذه الأمة المرحومة بالعلو المعنوى و المنزلة الوجودية فقال : ﴿و أنتم الأعلون و الله معكم﴾ (محمد ٤٧: ٣٥) أى : فى هذا العلو ، و هو سبحانه مقدس عن العلو المكانى ، فيكون المراد العلو الوجودى ، إذ موجودة الممكن إنما يحصل بمعية الواجب تعالى معه إما ابتداءً أو بتوسط معيته بالأشياء الآخر ، و هى العلة المتوسطة بينه و بين المعلول الأخير - فإن معيته تعالى بكل متقدم فى الوجود أقدم من معيته الى المتأخر ، لكن المراد هاهنا من «المعية» ما يكون بغير وسط ؛ لأنه فى مقام المدح .

و وجهه أن الانسان الكامل أعلى الموجودات ، لأنه خرق الوجود و سلك سبيل الله و أحاط بالكل و صارت مرتبته جامعة لجميع المراتب ، فله المعية الذاتية بالنسبة الى البارى جل اسمه و العلو فى المنزلة و المعنى ، فيكون فوق الكل ، فقد جمع له بالعمل العلو المكانى - لأن مكانه الجنة و هو أعلى الأمكنة - و بحسب العلم الموجب للاحاطة بالحقائق المعنوى . و الملائكة المقربون لهم العلو بحسب الرتبة ، لأنهم وسائط جود الحق و رحمته ، فقال لابليس : ﴿استكبرت أم كنت من العالين﴾ (ص ٣٨: ٧٥) ؛ لأن جوهر ابليس من الجواهر المتعلقة بعالم الظلمات ، فمنزلته دون منزلة الأنوار العقلية المرتفعة عن التعلق بغير الحق ، فلها السلطنة الكبرى على القوى المتعلقة بالعالم الأدنى .

فظهر أن الحق تعالى «على» لذاته ، لأن وجوده عين ذاته ، و الانسان الكامل «على» بعلو الحق تعالى . هذا فى مقام الفرق و الاشتراك فى الوجود و العلو .

و أمّا فى مقام الجمع ، فهو الواحد القهار لا غير ، لأنه لا يوصف إلا بالصفات التنزيهية ، فلا علو كما لا سفلى له ، و الاشتراك المذكور فى أصل العلو فى الجملة بين العبد و الرب فى مقام الفرق ، و لا بد من اعطاء حق الربوبية و العبودية من العلو بأنه ذاتى للرب و عرضى للعبد ، و لهذا أمر الله تعالى أشرف الممكنات - و هو الذى له المنزلة العظمى فى المعية للحق و العلو المعنوى دون غيره إلا بوسيلته أن يتأدب بأدب المعبودية و يسبح الله عن





النقص الامكاني، فقال مخاطباً إياه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى (٨٧): ١) و ظنّي أنّ منشأ استغفار رسول الله ﷺ كما ورد في الحديث هو هذه المعية العالية التي هي مظنة الاشتراك بين العبد و الربّ في العلوّ المعنوي، فيحتاج العبد الأعلى و الملك المقربّ في كلّ حين الى تذكّر عظمة الله و علوه الاستغفار عن ذنب وجوده الامكاني، لتلّا يقع في السكر عن الشكر، و في الفكر عن الاحسان، و النسيان عن الوجدان، فيجرى على لسانه شيء من السكريات، فينحط عن مقام القرب و المحبة الى مقام البعد و المذلة -نعوذ بالله من الحور بعد الكور .

اللطيفة الرابعة

في بيان تقديسه تعالى عن العلو المكاني

و فيه دلائل كثيرة أوردنا اثنين منها :
أحدهما: أنّ علوه لو كان مكانياً لكان لا يخلو إما أن يكون جسماً متمكناً أو نفس المكان .
و الأوّل باطل، لتركّب كلّ جسم إما بحسب نفس الجسميّة المشتركة كما هو مذهب جمهور الحكماء، و إما بحسب تعيينه الخاص و نحو وجوده النوعي أو الشخصي كما هو رأي الجميع، فإنّ كلّ نوع من الجسم مركب في الخارج إما من جوهرين، أو جوهر و عرض على اختلاف القولين في جوهرية الصورة النوعية و عرضيتها، يكون أحد الجزئين يجرى مجرى الجنس و الأخرى يجرى مجرى الفصل، و التركيب مطلقاً ينافي الوجود الذاتي كما علمت .
و الثاني لا يخلو إما أن يكون متناهياً في جهة فوق أو غير متناه، و الأوّل مستحيل لاستلزامه أن يكون المفروض فوقه أعلى منه، فلا يكون هو أعلى من كلّ ما عداه، بل يكون غيره أعلى منه مكاناً هذا محال ضرورة، و يلزم أيضاً أن يحتاج في تعيينه الى ما يحدّد جهته .
و إن كان غير متناه فيكون ممتنعاً لامتناع اللاتناهي في المقدار البراهين العقلية القاطعة الدالة على تناهي الأبعاد و المقادير .
و لنذكر من تلك البراهين ما هو أخف و أوثق و أنسب بهذا المقام و هو أنّه لو كان بعد غير متناه يمكن لنا أن نفرض ذلك البعد الى جهة الفوق و نفرض فيه نقط غير متناه، فلا يخلو إما أن يحصل في تلك النقط نقطة واحدة لانفرض فوقها نقطة أخرى و إما أن لا يحصل .

فان كان الأول كانت هذه النقطة آخر النقاط ، فيكون طرفاً لذلك البعد ، فيكون ذلك البعد متناهيًا و قد فرضناه غير متناه هذا خلف .

و إن لم يوجد فيها نقطة إلّا و فوقها نقطة أخرى كان كل واحدة من تلك النقط المفترضة في ذلك البعد سفلا ، و لا يكون فيها ما يكون فوقاً على الاطلاق ، فحينئذ لا يكون لشيء من النقط المفروضة في ذلك البعد علو مطلق ، و إذا لم يكن «مطلق» لم يكن «مضاف» ، و ذلك ينفي صفة العلوية ، و قد وصفنا أنه سبحانه على بمعنى العلو المكاني هذا خلف الدليل الثاني .

الدليل الثاني : أن كل وصف يكون ثبوته لأحد الأمرين بذاته و للآخر بتبعيته الأول كان ذلك الحكم في الذاتى أتم و أكمل ، و فى العرضى أقل و أضعف ، فلو كان علو الله تعالى بسبب المكان لكان علو المكان الذى بسببه حصل هذا العلو لله تعالى صفة ذاتية له ، و لكان حصول العلو لله سبحانه حصولاً بتبعيته حصوله فى المكان ، فكان علو المكان أتم و أكمل من علو ذات الله تعالى ، فيكون علو الله ناقصاً و علو غيره كاملاً و ذلك محال .

فهذان الدليلان قاطعان فى أن علو الله تعالى يمتنع أن يكون بالجهة ، و ما أحسن ما قال أبو مسلم بن بحر الاصفهاني فى تفسير قوله تعالى : ﴿لمن ما فى السموات و الأرض قل لله﴾ (الأنعام: ١٢: ٦) قال : «وهذه يدل على أن المكان و المكانيات بأسرها ملك الله و ملكوته ، ثم قال : ﴿و له ما سكن فى الليل و النهار﴾ (الأنعام: ٦: ١٣) و هذا يدل على أن الزمان و الزمانيات بأسرها ملك الله تعالى و ملكوته ، فتعالى و تقدس عن أن يكون علوه بسبب المكان و تقدمه بسبب الزمان ، إذ المكان و الزمان كلاهما من مخلوقات الله الواقعة فى أدنى المراتب .

فتعالى ذاته و صفاته عن أن يكون مكانياً أو زمانياً ، فبقى أن يكون علوه بحسب وجوب الوجود و الالهية ، و سرمديته بحسب القيومية الذاتية .

و على هذا القياس معنى عظمته ، فإنها أيضاً بحسب المهابة و الجلالة و القهر و الكبرياء ، و يمتنع أن يكون بسبب المقدار و الحجم ، لأنه إن كان غير متناه فى كل الجهات أو فى بعض الجهات فهو محال ، لما ثبت بالقواطع البرهانية تناهى الابعاد فى كل الجهات ، و إن كان متناهيًا فى الجهات كلها كانت الأحياز المحيطة بذلك المتناهى أعظم منه ، فلا يكون مثل هذا الشيء عظيماً على الاطلاق ، فالحق سبحانه و تعالى أعلى و أعظم من أن يكون من جنس الجواهر و الأجساد تعالى عما يقوله الظالمون علواً كبيراً .

